إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات أغسطس ٢٠٢٣م

عن المجد الباطل

ذات مرة جاء خادم إلى أبونا بيشوي وقال له: "أحياناً أتلقى مجداً من الناس وأستمتع بهذا المديح". سأله أبونا بيشوي قائلاً: "هل ستحضر عشية الصلاة المسائية هذا المساء؟" فأجاب: "نعم". فقال أبونا بيشوي: "جيد" ثم تركه دون أن يقول شيئاً آخر. في عظة عشية الصلاة المسائية العامة، انتقد أبونا بيشوي هذا الخادم، دون أن يذكر اسمه أو حتي ينظر إليه، قائلاً: "من أنت يا خادم الذي تسرق مجد الرب؟ لماذا تصلي لتكون خادماً؟ هل من أجل مجدك الشخصي أم مجد الله؟ ألا تتذكر ما حدث للملك هيرودس الذي سرق مجد الله؟.." واستمر أبونا بيشوي بهذه الطريقة، "أنت سارق ولص..." وهكذا. يصف الخادم كيف أن كلمات أبونا بيشوي هطلت عليه كالنار، مطهرة إياه من كل رغبات المجد الشخصي حتى لم يعد يتحمل ذلك نحو النهاية وترك الاجتماع وهو يبكي. في اليوم التالي، فوجئ بمكالمة هاتفية من أبونا بيشوي الذي قال له: "كيف حالك؟ كيف تشعر؟" فرد الخادم: "كانت العظة قوية جداً يا أبي ولم أستطع تحملها، كانت شديدة". فأجاب أبونا بيشوي: "أحياناً عليك أن تتسبب في جرح لكي يخرج العدوى، وبالتأكيد ستشعر بالألم بالطبع. ولكنني أصلي من أجلك، كن قوياً، وأنا معك وفي أي وقت تحتاجني اتصل بي". يقول الخادم أنه بعد هذا العلاج القاسي وحكمة أبونا بيشوي، لم يشعر بحاجة لسرقة مجد الله مرة أخرى. أصبح هذا الخادم واحداً من أعظم الخدام في الكنيسة، يتولى الكثير من المسؤوليات ويخدم الله بكل تواضع ويتذكر دائماً أن يعطي المجد لله.

غرائز العُجب والتباهي، أي المجد الباطل. إنها تُثير فيك دافعاً لا يُقاوَم للتباهي والظهور بمجد. قد تعتقد أن التباهي لن يؤذي أحداً وأنه ليس خطيئة كبيرة. ولكن هل تتذكر قصة إغراء الشيطان لربنا يسوع في البرية؟ واحدة من هذه الاختبارات كانت رغبة الظهور. وقد أقنع الشيطان يسوع بأن يصعد إلى أعلى الهيكل و" قَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ ٱبْنَ ٱللهِ فَٱطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ. قَالَ لَهُ يَسُوعُ: مَكْتُوبٌ أَيْضاً: لاَ تُجَرِّبِ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ. " (متى ٤ : ٦-٧) ألا ترون؟ رفض أن يتباهى. إن العُجب يحاول دفعك للقيام بشيء مثير للدهشة مثل ذلك، شيء غبي ليس له فائدة، وخاصة ليس له حب! إنه يحثك على فعل أشياء تجعلك تظهر

بشـكل رائع وتجعل الناس يعجبون بك. ولكنه يتركك فارغاً، لأن إعجاب البشـر لا يُضـيف شـيئاً لك نفسياً أو روحياً في النهاية.

هناك درجتان من المجد الباطل:

+ النوع الأول من المجد الباطل هو تلك التي نرتفع فيها بسـبب أمور خارجية. إنه أسـوء أشـكال المجد الباطل التي تؤثر على الإنسـان بالطريقة الأسـرع والأبسـط، حيث يظهر بفخر، ويتباهى بالسـلع التي يملكها أو يعتقـد أنـه يملكها ويرغـب في أن يُلاحظ ويُراعَى ويُعجَـب ويُكرَّم ويُمَـدَّح ويُطرَب من قِبـل الآخرين.

+ النوع الثاني من المجد الباطل المميز من قِبَل القديس يوحنا كاسـيان "هو الذي نحترق به بالرغبة في المدح الفارغ بسـبب الأمور الروحية والمخفية." في الإنسـان الروحي الذي لا يزال تحت وطأة الشـهوات، يتعايش هذا النوع مع النوع الأول، أو يحل محله عندما يتخلص من كل التعلق بالسـلع الدنيوية؛ ويتمثل بالتباهي بذاته أو التفاخر أمام الآخرين بفضـائله أو تقشـفه، والسـعي لأن يُعجب ويُمدح من قِبَل الآخرين.

المجد الباطل هو التظاهر بأشـياء غير حقيقية عن نفسـك والتخيل بأمور لن تجلب لك فائدة دائمة، بل تُظهِرك بصـورة رائعة لفترة قصـيرة فقط. إنها كما لو أنك تعيش حياتك في حلم. عندما يحلم الإنسان الجائع، إذاً هو في هذا الحلم يأكل، لكنه يستيقظ وهو فارغ. أو كما لو أن الإنسان العطشان يحلم، فإذاً هو يشـرب، لكن عندما يسـتيقظ، يشـعر بالضـعف والعطش (أشـعياء ٨ : ٢٩). المجد الباطل يجعلك ترغب في إبعاد الله عن الصورة، حتى تشعر بالمجد والأهمية بتخيل أنك فعلاً استوليت على مكانـه. إنه يجعلك ترغب في تعتيم عقلك، حتى تسـتطيع أن تحلم ولا تنزعج من واقع نور الله. يتحدث الكتاب المقدس عن المجد الباطل عندما يقول: "هَـذِهِ هِيَ ٱلدَّيْنُونَـةُ: إِنَّ ٱلنُّورَ قَـدْ جَـاءَ إِلَى ٱلْعَالَمِ، وَأَحَـبَّ ٱلنَّاسُ ٱلظُّلْمَـةَ أَكْثَرَ مِنَ ٱلنُّور." (يوحنا ٣ : ١٩) أليس كذلك؟ هم في الحقيقة أحبوا الظلمة. الفخر فقط يجعلنا نعتقد أننا يجب أن نكون مهمين وقادرين على تحقيق أشـياء عظيمة. لكن المجد الباطل يملأنا بالرغبة في أن نبدو مهمين، سـواء كنا كذلك أم لا، وأن نبدو وكأننا نحقق أشياء عظيمة.

الغرور يجعلنا جاهلين بما يشـينا حقاً. مع المجد الباطل نبني بتعمد صورة مزيفة لما يشـينا. نقيم هذه الصـورة لأننا نرغب في أن ننظر إليها بفرح، وعندما نقيم صـورة لأنفسـنا وللآخرين ليعجبوا بها، فهو موت لنا أيضـاً. تصـبح ذاتنا الحقيقية مُدفَونة في قبر صـغير في أعماق قلوبنا، وطالما أن المجد الباطل هو السـيد، فلن يسـمع أحد كثيراً منها مرة أخرى. المجد الباطل يكره ذاتك الحقيقية ويرغب في أن يبقيها مدفونة، لأن ذاتك الحقيقية ضعيفة ومحرجة ومُذلَّة بالنسبة له. فذاتك الحقيقية لن تحصل

أبداً على كل الثناءات والمديح التي يمكن للمجد الباطل الحصول عليها عن طريق تكوين صورته المزيفة لك. المجد الباطل يمكن أن يجعلك تبدو لطيفاً، صادقاً، مخلصاً، نبيلاً، وحتى متواضعاً، بينما لن تظهر ذاتك الحقيقية على هذا المستوى إذا تم عرضها. المجد الباطل يكره الله أيضاً دائماً، لأن الله ينتظر أدنى فرصة للنزول إلى قلبك وإحياء ذاتك الحقيقية وإعطائها القوة للعيش.

المجد الباطل يرغب في جعلك تبدو جذاباً، ساحراً، مشرقاً، موهوباً، مخلصاً، قادراً على السيطرة على كل شيء، وحاضراً بجميع الصفات التي يحتفي بها مجتمعك، حتى تمتلك نوعاً من المجد الخاص بك.

المجد الباطل يجعلك تشتهي انتباه وإعجاب الناس من حولك. ولهذا يقول الآباء إن المجد الباطل هو إرضاء الإنسان بدلاً من إرضاء الله. إن الناس الباطلين لا يهتمون بشيء عدا كسب إعجاب الآخرين.

الغضب يأتي دائماً مع المجد الباطل، ولكن الأشخاص الباطلين يدارونه. في كثير من الأحيان، يقومون بإخفائه وراء المرض والإعاقات الجسدية. يمكنهم إخفاؤه بالصمت أو بالابتعاد عنك. أو يمكنهم التعبير عنه ثم يخفونه بعد ذلك، عن طريق جعله يبدو وكأنه غضب مُبرر لسبب ما. في كل الأحوال، لا يدعونه يبدو وكأنه ضعفاً أو خطيئة. إنهم يبقونه خارج الأنظار، أو يجعلونه يبدو وكأنه احتجاج شجاع حتى تعجب منه، دائماً يحاولون إيهامك بانطباعات غير حقيقية. بسبب كونهم يكافحون للظهور بشكل جيد، فهم حساسون جداً لأدنى انتقاد، خائفين دائماً من كشف نقائصهم. كلما كانوا أكثر غير صادقين، كلما كانوا أكثر حساسية. في بعض الأحيان، يمكن أن تجرحهم التعليقات الأكثر جدية شخصياً. قد يجرحهم نصف ما تقول، لأنهم سيفسرونه كانتقاد شخصي. أي شخص يتأذى بسهولة جداً أو ينزعج بسرعة يظهر أنه يحمل مقداراً خطيراً جداً من المجد الباطل في داخله ويرغب في كمية غير طبيعية جداً من المديح من الآخرين. من المستحيل أن يفكر أو يقوم بأي شيء عظيم أو نبيل من هو أسير لحب التصفيق.

عندما تسقط في داء إرضاء الناس (الذي نقع فيه جميعاً بدرجة أو بأخرى)، تصبح عبداً. تفعل ما يقوله الناس، وتفقد القوة للوقوف لنفسك. إذا قال لك شخص ما أن تلبس بطريقة معينة، فإنك تلبس بهذه الطريقة. إذا قال لك أن تحب أشياء معينة وتكره أشياء معينة، فإنك تجعل من واجبك أن تمتلك تلك الاهتمامات. إذا قال لك أن تخالط أشخاص معينين، فإنك تخالط هؤلاء الأشخاص. إذا قال لك أن تبتعد عن أشخاص معينين، فهذا ما تفعله. إذا قال لك أن لا تُحرجه بكونك متديناً جداً، فإنك حتى تبتعد عن الله من أجله. وإذا قال لك أنك يجب أن تخجل من نفسك، فإنك تخجل على الفور من نفسك. المجد الباطل هو ما يجعل الشخص غير قادر على قول لا للناس ولكن يستطيع بسهولة قول لا لله. إذا تقدم الداء بعيداً جداً، يصبح هدفك الوحيد في الحياة هو إرضاء الآخرين حتى يوافقوا عليك ويُمدحونك.

في وصف المجد الباطل، نرى أنه هوي خفي ورقيق للغاية، يصعب التعرف عليه، وقادر على أن يتخذ أشكالاً متعددة ويهاجم الإنسان من زوايا عديدة، بحيث يعتبر القديس يوحنا كليماكوس أنه "أصعب وأخطر الفخاخ كلها".

بما أن المجد الباطل هو السعي وراء المجد الإنساني والدنيوي والأرضي، يجب على الإنسان الذي يرغب في التغلب على هذا الهوي أن يدرك الباطلية لمثل هذا المجد من خلال التعرف على أن أساسه يفتقر إلى الجوهر وأهدافه لا تمثل شيئاً، كما يُؤكد الآباء مراراً وتكراراً. الموت يكشف النقاب عن مدى باطلية وفراغ الأشياء الإنسانية التي تهدف إليها المجد الباطل، في حين أنه في نفس الوقت يُظهر اللحظة الحاسمة التي يتم فيها كشف الحكم الإلهي للإنسان.

لهذا السبب، فإن "ذكرى الموت" هي أيضاً سلاح فعال ضد هذا الهوي. بما أن المجد الباطل هو أيضاً السعي وراء الاحترام والشهرة والشرف والمجد، فإنه مناسب أن نتخلى عن كل ما يمكن أن يكون مصدراً له أو مناسبة له. يجب أن نفر من صحبة أولئك الذين يكونون تحت تأثير المجد الباطل ويُعطون مثالاً مميتاً. يجب رفض كل وظيفة تشرّف بها الناس خاصةً بسبب القوة أو المكانة التي تمنحها. يجب أن ندفع بعيداً كل تميز قادر على جذب الإعجاب أو الثناء. بما أن المجد الباطل هو الرغبة في أن يُلاحَظَ الإنسان، فإنه مناسب أن نتجنب ما يمكن أن يلفت النظر إلينا، سواء في الكلام أو الفعل أو التصرف. على النقيض، من يرغب في أن يتحرر من المجد الباطل يجب أن يفعل كل ما في وسعه ليصبح أو يظل غير معروفاً لدى الناس. اختيار الحياة بدون أهمية، فضلاً عن البحث عن العزلة، هو مناسب أيضاً.

ينصح يوحنا كليماكوس (الدرجي): "كن متحمساً داخل روحك، دون أن تظهر ذلك بأدنى شكل خارجي، سواء بعلامة مرئية أو بكلمة أو إشارة"، "اخفِ أسلوب حياتك أينما ذهبت". وفي مكان آخر يكتب: "بداية التحرر من المجد الباطل هي ضبط اللسان." وهذا يعني أكثر من ذلك أن نرفض أن نُعلم الآخرين، وحتى أن نتحدث بكلمة، كما يؤكد القديس مكاريوس الكبير: "مَن أُجبر على التحدث ومن يُجبر على قول كلمة يجب أن يشعر بالحزن على ذلك؛ يجب أن يفر من هذا الشيء كما يفر من النار ويُبعد عن هذه الفكرة ليهرب ولا يقع في المجد الباطل بسبب كلمته." يستشهد القديس أيضاً بمثال موسى، الذي طُلب منه بنفسه من الله أن يعلن الكلمة لإسرائيل، فعذر نفسه قائلاً: "أنا لست بليغاً"؛ ومثال أرميا، الذي عذر نفسه بقوله: "ها أنا لا أعلم كيف أتكلم، لأنني طفل"، ومثال القديس بولس، الذي يكتب عن خدمته: "إنه من الضروري أن يوضع عليَّ واجب." في أقوال الآباء، توجد العديد من الأمثلة على الآباء الذين يرفضون الكلام هكذا.

للتغلب على المجد الباطل يجب أن نزرع فضيلة التواضع في حياتنا. التواضع ليس ضعفاً أو تدهوراً ذاتياً. إنه قوة شخصية واعتراف بأن كل الأشياء الجيدة تأتي من الله. يعلمنا التواضع الاعتراف بعيوبنا وضعفنا واعتمادنا المطلق على نعمة الله. إنه يمكننا من العيش بأصالة، ترتكز على حقيقة هويتنا كأطفال الله المحبوبين. علاوة على ذلك، يجب أن نحول تركيزنا من الذات إلى الآخرين. يكتب الرسول بولس في فيلبي ٢:٣-٤، "لاَ شَيْئاً بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ ٱلْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ." عندما نعيد توجيه انتباهنا إلى احتياجات من حولنا، فإننا نتحرر من سلاسل المجد الباطل. تصبح أعمال الحب واللطف والخدمة المتفانية هدفنا الأساسي، بدلا من السعي إلى المكسب أو الإعتراف بالفضل. الصلاة والفحص الذاتي هما أداتان أساسيتان في معركتنا ضد المجد الباطل. من خلال الصلاة، نسلم غرورنا ورغباتنا لله، وندعوه إلى تحويل قلوبنا. نطلب توجيهه وقوته للتغلب على جاذبية تمجيد الذات. يساعدنا الفحص الذاتي في تحديد المناطق في حياتنا التي يتربص فيها المجد الباطل، مما يمكننا من التوبة وطلب مغفرة الله. دعونا نتذكر أن قيمتنا وأهميتنا الحقيقية لا تكمن في التصفيق العابر للعالم ولكن في هويتنا كأبناء لله. بينما نسعى إلى محاكاة المسيح، دعونا نقلد تواضعه ومحبته المتفانية. من خلال العيش في خدمة متواضعة للآخرين، نصبح أوعية لنعمة الله، مما يعكس حبه للعالم. قد نسعى جاهدين يوميا لاحتضان التواضع، ورفض دعوة صفارات الإنذار إلى التذمر. دعونا نجد الفرح في خدمة الآخرين، والسعي إلى مجد الله بدلا من مجدنا.

العلامة على أن الانسان قد شُفي من المجد الباطل هي أنه لم يعد يعاني من الحزن على الإذلال في الأماكن العامة، ولم يعد يشعر بالضغينة تجاه كل من أساء إليه أو احتقره أو اهانه، أو تجاه الشخص الذي تحدث (أو يواصل التحدث) عنه. على العكس من ذلك، يشكره باعتباره متبرعاً، "عندما يشرع الناس في مدحنا، دعونا نتذكر بإيجاز كثرة خطايانا، وسنجد أنفسنا لا نستحق ما يقال أو يفعل على شرفنا. أخيراً، دعونا نلاحظ الدور الأساسي الذي تلعبه الصلاة في شفاء المجد الباطل، كما هو الحال مع كل هوي. من خلال الصلاة، يتلقى الإنسان من الله المساعدة التي بدونها يظل عاجزا عن التغلب على أي شهوة على الإطلاق. ولكن في حالة المجد الباطل يتلقى بالإضافة إلى ذلك التمييز اللازم لإحباط جميع الفخاخ التي وضعها له الهوي. تسمح له الصلاة بالمثل بالانفصال عن هذا العالم، الذي يكون هدفه، وأن يعلق نفسه على الله. أخيرا، تسمح له الصلاة بتمجيد الله من خلال الاعتراف بأن له يستحق كل المجد والإكرام والسجود.